قال : « لا بأس . لقد مرت اربع عشرة سنة منذ ان التقينا. الا تذكرني في الكلية العربية ، بالقدس؟ كنت انت عريفنا في ردهة النوم لسنة كاملة . الا تذكر ؟ » يعلم الله انني لم اذكر يوما طيلة تلك السنوات انني كنت « عريفا » في ردهة للنوم — وكانت اكبر ردهة في القسم الداخلي — في الكلية العربية . قلت : « ذاكرتي للاسماء ضعيفة ، ولكنني نادرا ما انسى وجها عرفته..» فضحك ، والتمعت أسنانه البيضاء النضيدة فوق لحيته السوداء القصيرة ، وقال : « طبعا كنت بلا لحية. وكان لي شعر كثيف .. » وفجأة تذكرت . تذكرت طالبا كان يصغرني بثلاث سنوات ، يلبس بنطلونا قصيرا ... يقف احيانا جانبا ، في رواق تهب فيه الريح وهو يكاد يرجف من البرد ، جامعا ركبة الى ركبة ، ويتكلم بصوت خافت ، وهو يبتسم ... توفيق .. طبعا تذكرت . فتى رقيق ، ضائع ، كأنه لا ينتمي الى أولئك الطلبة الكثيرين الصاخبين في الاروقة . يحمل كتابا ما ، دائما . (ولكننا كنا دائما نحمل الكتب .) تذكرته ، صغيرا ، ولكن حادا . مبتسما ، ولكن عينيه تتساءلان . يسأل ولا يقنع دائما بما يسمع من جواب . كانت تلك سنتي الاخيرة في الكلية ، أما هو فكان عليه ان يقضي فيها ثلاث سنوات أخريات . وحدثني فيما بعد انها كانت سنوات مرة ، انتهت الى خلاف بينه وبين العميد ، ومغادرة للكلية دون وفاق مع المسؤولين . وعندما توثقت صداقتنا بعد ذلك اللقاء ، لم اعجب ان ذلك الصبي الهش ، الذي تطفر البسمة الى عينيه قبل شفتيه ، لم يكن في دخيلته من الهشاشة شيء . كان ايمانه ، المترع حتى في ذلك الوقت بنزعة دينية مسيحية قوية ، يكفي لان يدفعه الى مقاومة كل من يختلف معه مقاومة عنيدة ، ولكن دون ان تبدر منه كلمة نابية، كأنه مسيح ازاء الفريسيين . كان ملجاه ذلك الابتسام الذي يوحي بالسخرية ، وحس المفارقة ، دون ان يبلغ يوما حد الشماتة — الا ، اللهم ، من نفسه أحيانا .

في هارفرد عرفته جيدا . لم يكن قد مر على زواجي الا شهران او اقل ، وكانت زوجتي معي. فأحبيناه جدا . وكان لنا هناك صحب من الطلبة العرب الآخرين — منح خوري ، بسيم حنوش ، حسن زكريا ، وغيرهم (كلهم اليوم دكاترة) — نلتقي في شقتنا الصغيرة ، نتكلم بحرارة ، ولا نكف عن النقاش . وكان توفيق أعلمنا بشؤون البلد ، وأدبائه ، ومفكريه . لعله كان اكثرنا مطالعة ، وحركة . كان كل يوم يقوم بمغامرة غريبة او يأتينا بحديث عن مغامرة : يتجول في أزقة بوسطن القديمة ، يتعرف بأناس مدهشين ، بعضهم من الزنوج ، ويتعرض احيانا لمخاطر يذهلنا انه لا يخشاها . كان يريد ان يعرف كل شيء . ولكنني كنت الحظ ان في ركن ما من نفسه ثمة وحشة يغالبها وتغالبه . كثيرا ما يذرع الطرقات ، وحيدا. ومع ذلك فانه يحضر المحاضرات ، يمشي الى ما لا نهاية ، يقرأ كثيرا ويقول لنا ما الذي يحسن بنا ان نقرأ . كل ذلك مع نكتة متواصلة . كان يركب الاحداث ، اذا رواها ، لينتهي دائما الى فكاهة وضحك . ننظر احيانا من النافذة ، فنراه يسير على الرصيف متأرجح الذراعين ، يدق يدا بيد ، فنناديه ونملأ الشارع بصوتنا المردد اسمه. فيصعد الينا .. وكان يصف نفسه بالشاعر ، ولكنه على غير عادة الشعراء ، لا يقرأ لنا شيئا من شعره — حياء ، او كبرياء . ولو لم يطلعني على القليل مما نشره قبل ذلك (وبخاصة في مجلة حررها لمدة في بيروت تدعى « صوت المرأة ») لحسبت ان شعره انما هو جزء من مغامرة مزعومة . ولكن معرفته بالشعر والشعراء ، عربا واجانب ، كان هائلا . وجعلت ادرك ايامئذ ان توفيق لم يكن شخصا عاديا . ولما قرأت شعره اخيرا ، بعد ذلك بزهاء السنتين ، في كتابه الاول « ثلاثون قصيدة » ، تحقق ظني به : متمرد فذ ، مجدد فذ ، فلسطيني فذ (راجع دراستي لهذا الديوان في كتابي « الحرية والطوفان » (١٩٦٠) ص ٤٣ — ٥٧) . والصفة الاخيرة كانت مهمة بالنسبة اليه ، والى فهمه ، اهمية الصفتين الاخريين ، لان في المنبع من شعره الذي أراده مغايرا لكل شعر آخر يعرفه ، كان حسه الفلسطيني المبرح بالنفي . ولما كانت نزعته الدينية تتغذى بتشبهه ، عن وعي او دون وعي ، بالمسيح ، لانه ايضا ابن طبريا وابن الجليل ، فقد كان النفي لديه مأساة مزدوجة : بعدا عن وطنه ، وصراعا متواصلا مع المسيح الذي لم يعرف نفيا مثله ولم يهون عليه بلية النفي .

* * *

في أواسط الخمسينات ذهب توفيق الى إكسفورد لمدة ، ثم عين مدرسا للادب العربي في جامعة كمبردج . وعدت انا الى بغداد لاجعل اقامتي الدائمة فيها . ولكن الصلة بيننا لم تنقطع قط : كانت الرسائل تغدو وتروح بيننا ، وفي الصيف قد